بالمرستون (Palmerston) خطوته الاولى في هذا الاتجاه، عندما أرسل رسالة في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٤٠، أي في اليوم نفسه الذي هزمت فيه القوات البريطانية محمد علي، إلى السفير البريطاني في استانبول آنذاك اللورد (Ponsonby)، يطلب فيها منه تمهيد الأجواء لامكانية عودة اليهود إلى فلسطين[٥١] لاستغلالهم هناك لتنفيذ مآرب السياسة البريطانية. ومنذ ذلك الوقت، تنافست كل من البرجوازيتين البريطانية والفرنسية على تأسيس وتنشيط التنظيمات اليهودية التي تتخذ لنفسها واجباً في عودة اليهود إلى فلسطين والاستيطان فيها. ومن بين هذه التنظيمات اليهودية، نشطت في أوساط اليهود منظمة عرفت باسم أحباء صهيون (Hovevei Zion) داعية اياهم للهجرة إلى فلسطين، ومحاولة تنظيم هذه الهجرة.

اليهود في فلسطين

حتى بداية القرن التاسع عشر، بلغ عدد اليهود في فلسطين ٨,٠٠٠[٥٢] سكنوا بشكل رئيسي مدن فلسطين الكبرى (القدس، صفد، الخليل، طبريا)، وقد بلغ عدد اليهود في القدس حوالي النصف من مجمل سكانها. هذا التواجد الواسع في مدينة القدس لليهود تتضح أسبابه، كما بيّنها كارل ماركس في مقالته «في تاريخ المسألة الشرقية» (Zur Geschichte der orientalischen Frage) حين أشار إلى أن المتدينين من اليهود جاؤوا إلى القدس من «بلدان متباعدة ومختلفة، مدفوعين بالرغبة في السكنى قرب تل (Tal Josaphat)، وللموت في الموقع نفسه؛ حيث ينتظر أن يظهر المخلص»[٥٣].

وحتى سنة ١٨٨٠، كان عدد اليهود المتواجدين في فلسطين قد ارتفع إلى حوالي ٢٣,٠٠٠ نسمة[٥٤]، وشكلوا، حتى ذلك الوقت، أقلية دينية، عاشت الظروف نفسها التي عاشها مواطنو فلسطين الآخرون.

يشار هنا، إلى أنه رغم دعم المول روتشيلد لنشاطات أحباء صهيون ومشاريعها، لم تأت هذه التجربة بالنتائج المتوخاة منها. مما حدا بآحاد هعام إلى تقديم اقتراحات بضرورة اجراء بحوث شاملة على أرض فلسطين، يجريها اختصاصيون، وإلى تأسيس مؤسسة مركزية لشراءالأراضي والاستيطان. والانتقال إلى زراعة الحبوب ورعاية الماشية، اللذين يشكلان الشرطان الضروريان للفلاحة[٥٥]؛ تنظيم الاستيطان وبرمجته، اللذان دعا اليهما آحاد هعام جاءت بهما إلى فلسطين موجة الهجرة الصهيونية الثانية، التي مع مجيئها، بدأت بالتدريج عملية الاستيطان الصهيوني المخطط والمدروس على الأصعدة: الزراعية والصناعية، في الريف والمدن على السواء. وإلى تاريخ الهجرة الصهيونية الثانية يمكن ارجاع بدايات التأثير الفعلي للاستيطان الصهيوني في فلسطين على البنية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع الفلسطيني[٥٦].

خلاصة

لم تكن الطبقات في فلسطين حتى أوائل العشرينات من هذا القرن قد تبلورت كطبقات محددة ومتمايزة، بالمفهوم العلمي الخاص لهذه الكلمة. بل كان التداخل بين